مدينة

آيلة إلى السقوط

قصة قصيرة

بقلم الفقير إلى رحمة الله وعفوه

همام محمد الجرف

www.alkottob.com

الظلام قد حلَّ على أرجاء المدينة ، ولكنها مازالت تعجُّ بالمارَّة والأضواء المبهرة تملأ الشوارع ، مضيت في طريقي وحينما صعدت على الجسر لأصل إلى الجادة الأخرى من الطريق ، رأيت ما قد أزعجني و أثَّر فيَّ كثيراً وقلت في نفسي – بنظرة قاتمة لما رأيت – هذه المدينة قد آلت إلى السقوط . قال الله تعالى:

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس:٢٤)

– و لِمَ كلُّ هذا فهذه مدينة عريقة – أبسبب أناسٍ ظنَّوا أنهم قادرون على الدنيا بجشعهم وطمعهم وكبرهم ؟

ولكنَّ أين حقُّ الله الذي افترضه على الأغنياء في مَالِهم ؟ فما راعوا فقيراً ولا مسكيناً و لا مظلوماً و لا ذي حاجة .

نعم لقد رأيت طفلة افترشت الأرض والتي ضاقت بها على زاوية الجسر لم أدرِ أهذه طفلة مشردة أم ماذا ؟

أهي بائعة الكبريت ؟ أم هي الطفلة التي هربت من رواية فيغتور هوغو ؟ نعم إنها هي طفلةٌ من البؤساء .

كانت هذه الطفلة تسلِّي نفسها ببعض الألعاب التي ربما قد وجدتها على قارعة الطريق ، وكان النذر اليسير من المارة يلقون لها ببعض النقود ،

www.alkottob.com

وماذا ستغني هذه النقود هل تسدُّ رمقها ؟ أم تدفئها في ليالي الشتاء القارصة ؟ أم هل تجعل لها بيتا من الأحلام تسكنه وتنام فيه ؟

أين أسرة هذه الطفلة هل هم مشردون أيضاً ؟ كثيراً ما أرى أطفالاً مشردين ولكنهم لم يؤثروا في نفسي كما أثرت هذه الطفلة البائسة ، هل لأنها أنثى ؟؟؟

نعم لأنها أنثى .

هذه المدينة التي كانت تلقي بتناقضاتها في كل شارع وكل حي وكل شبر منها فهذه العمارات التي تطاولت في البنيان وهؤلاء سكانها الذين ركبوا السيارات الفارهة ، وارتدوا أغلى الثياب .

وهذه الفنادق التي تحيط بالجسر الذي كنت أعبره ، وفيها تبذخ الأموال في حلٍّ وفي حرام ، هل ألقى أحداً منهم نظرة على هذه الطفلة لعلَّه يشفق عليها ؟! ولِمَا ؟! فرقابهم تطاولت وأعينهم اعتادت النظر إلى الأعلى لا إلى الأسفل بسبب نظاراتهم السوداء التي حجبتهم عن العالم الذي أحاط بهم .

وكيف سيرونها أصلاً ؟! أو يرون أمثالها ماداموا لا يترلون من سياراتهم ويمشون مع الناس ، فيشعرون بأحوالهم .

كيف نحيا نحن وكيف يحيا هؤلاء ؟ وكيف تحيى هذه الطفلة المشردة وأمثالها ؟

www.alkottob.com

أسئلة كثيرة جالت في خاطري ، كيف تحيى أصلاً هذه الطفلة بين مشردين قد تحولوا إلى ذئابٍ جائعة متربصة بفريسة ضائعة ؟

هل يلام هؤلاء الذين انسلخوا عن مجتمعهم بحُلْوِهِ ومرِّه ؟! وحُرِموا مما هو حق لهم في حياة كريمةٍ هانئة ، فنقموا على الحياة كلها فتحول بعضهم إلى وحوش يفترس بعضهم بعضاً ، ما جعلني أفكر بهذه الطفلة التي قد تقع فريسة بين فكي هؤلاء .

أم يلام من يرى هؤلاء الأطفال ولا يفكر بهم ؟ لَما هذا الطفل أو هذه الطفلة يلجأ إلى التشرد أو إلى التسول ويصبح عبئاً على المجتمع ؟ فتتفشى الجريمة والسرقة أليس من واجب هؤلاء أن يلقوا بنظرهم من أبراجهم العاجية على هؤلاء المساكين ، ويحس بضعفهم ، هذا كل ما فكرت به وجال بخاطري وهذه الحماسة التي أخذتني بهذا لمشهد .

ولكن هل تفيد مشاعري هذه الطفلة المسكينة و هل تغنيها من جوعٍ ؟ وهل تروي ظمأها ؟ وهل تقيها من بردِ الشتاء أو قيظ الصيف ؟.

إن مشاعر هذه الطفلة قد تختلف عمَّا سيئول إليه واقعها ، قد تفرح بقليل من المال لتشتري به طعاماً أو شراباً أو لعبة تلعب بها ولكنها لا تدري ما يحمل لها الغد من شقاء أو من سعادة قد تكون منقوصة ، أو ما سيكون في مستقبلها .

www.alkottob.com

والعجيب في نظرات هذه الطفلة وقد ملأتها السعادة لهذه الأموال الـــتي تلقى إليها من المارة و أنا أرقبها على عجلٍ من أمري ، إن هذه الطفلة الفرحة بهذه النقود أظنها قد تفوق بفرحها سعادة من انشغل عن طاعة الله و أضاع العمر في جمع المال و أكل حقوق أمثال هؤلاء الأطفال .

عبرت الطريق و أنا أحمِّل نفسي بعض اللوم لأني لم استطع أن أقدم لهذه الطفلة ما يغير وضعها سوى مشاعرٍ من الحزن والأسى على هذه الطفلة وحتى الغضب من هؤلاء الذين وجب عليهم ألا يتجاهلوا أمثال هـــذه الطفلة حتى لا تتهاوى بروجهم العاجية وتسقط فوق رؤوسهم فلا هي أغنتهم و لا أفاضوا بها على من هم بحاجة لها .

من وحي الواقع

همام محمد الجرف

غفر الله لي ولوالدي

homam_algerf@yahoo.com

www.alkottob.com